﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّنَت الآياتُ السَّابقة بعضَ الصِّفات القلبيَّةِ للمنافقين، من التَّردد والتّذَبْذُب بين الإيمانِ والكُفر، وتعزُّزِهم بالكفر، ووَلايتهم للكافرين - بيَّن هنا بعضَ أحوالهم الفعليَّة الدالَّةِ على بعض ما تُكنُّه صدورُهم؛ لعلهم بها يُعرفون، فيحذرَهم المؤمنون، فإن خَفِيتْ عَلَيْهِمْ؛ فاللّه يحكم بينكم في الدارين، ولن يَخذُلَ اللّه أولياءَه أبدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: (رَبَصَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْتِظَارِ، التّربّص: الانتظار بالشّيء، سلعة كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله[1]، وينتظر به يومًا[2]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ أي "ينتظرون بكم دوائر الزمان"[3]، وهو ما "يتجدّد لكم من ظفر أو إخفاق"[4].

2) ﴿فَتۡحٞ﴾: أصل يدل على خلاف الإغلاق. الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، ويقال فتح القضية فتحًا: فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فإنه يحتمل النُّصْرَةَ والظفر والحكم[5]. والمراد هنا: الظفر والظهور على العدوّ.

3) ﴿نَصِيبٞ﴾: (نصب) أصل يدلّ على إقامة شيء وإهداف في استواء. والنّصيب:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ربص).
(2) الواحدي، البسيط: 7/156.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/214.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتح).

الحظّ من الشّيء، كأنّه الشّيء الذي رُفع لك وأُهدف، الحظّ المنصوب، أي: المُعَيَّن[1]، والمعنى المراد هنا، كما قال ابن عباس: يريد ظفرًا على المسلمين، يعني دَولة وظهورًا عَليهم[2].

4) ﴿نَسۡتَحۡوِذۡ﴾: (حَوَذَ) أَصْلٌ مِنَ الْخِفَّةِ وَالسُّرْعَةِ وَانْكِمَاشٍ فِي الْأَمْرِ، استحوذ العير على الأتان، أي: استولى على حَاذَيْهَا، أي: جانبي ظهرها[3]، يقال أحوذ الشيء، إذا جمعه وضمَّه، ومنه يقال: استحوذ على كذا، إذا حواه، هذا هو الأصل، ثم جعلوا الاستحواذ بمعنى الاستيلاء على الشيء؛ لأنَّ المستولي على الشيء بمنزلة المحيط به"[4]، فقالوا للكفرة: "ألم نغلبكم ونتمكّن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم"[5].

5) ﴿وَنَمۡنَعۡكُمۡ﴾: أصل واحد هو خلاف الإعطاء، ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منعة: أي عزيز ممتنع على من يرومه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾[6]، والمعنى المراد هنا أَيْ بِتَخْذِيلِنَا إِيَّاهُمْ عَنْكُمْ، وَتَفْرِيقِنَا إِيَّاهُمْ مِمَّا يُرِيدُونَهُ مِنْكُمْ"[7].

6) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) أصل يدلّ على امتداد شيء، السّبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه (سُبُل)، ويستعمل لكلّ ما يتوصّل به إلى شَيْءٍ خيرًا كان أو شرًّا، ويعبّر به عن المحجّة؛ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾[8]، والمراد به هنا الحجّة[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّ من صفات المنافقين أنّهم "ينتظرون ما يحصل لكم من خير أو شرّ، فإن كان لكم نصر من الله وغنمتم، قالوا لكم: ألم نكن معكم؟ شهدنا ما شهدتم! لينالوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نصب).
(2) الواحدي، البسيط: 7/157، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حوذ).
(4) الواحدي، البسيط: 7/157، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/203.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/104.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(7) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/419.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/324.

من الغنيمة، وإن كان للكافرين حظّ قالوا لهم: ألم نتولّ شؤونكم ونُحِطْكم إحاطة العناية والنّصرة ونحمِكم من المؤمنين بإعانتكم وتخذيلهم؟! فالله يحكم بينكم جميعًا يوم القيامة، فيجازي المؤمنين بدخول الجنّة، ويجازي المنافقين بدخول الدّرك الأسفل من النّار، ولن يجعل الله بفضله للكافرين تسلّطًا على المؤمنين، بل سيجعل العاقبة للمؤمنين"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة كمال الاتصال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

لم تعطف هذه الجملة على الآية السابقة؛ لشدة الاتصال بينهما، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ الآية بدلٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾. ويجوز أن تكون نعتًا للمنافقين على اللفظ؛ فتكون مجرورة المحل[2].، وكونها صِفَةً لِلْمُنَافِقِينَ فقط أولى إذ هم المتربّصون دون الكافرين"[3]، وفيه "إشارة كاشفة لموقف المنافقين، وهو موقف التربّص والانتظار لما ينجلي عنه الموقف فيما يدور بين المؤمنين والكافرين من صراع"[4].

تربص المنافقين بالمؤمنين وترقب الحوادث

نكتة تلوين الخطاب:

في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى المؤمنين، بتعديد بعضٍ آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم[5].

دلالة التّربّص في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

معنى التّربص هو المكث في المكان، ويدلُّ على حال المنافقين وفعلِهم، فهم جاثمون في أماكنهم، ثابتون فيها، لا يقدِّمون للمسلمين نفعًا، ولا

التربص هو المكث في المكان، ويدلُّ على الِانْتِظَارِ وَتَرَقُّبِ الْحَوَادِثِ

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(2) السّمين، الدر المصون: 4/123.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(4) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(5) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

يدفعون عنهم ضرًّا، وفي الوقت ذاته يترقَّبون الحوادث، فهم في توتُّر دائم، فعبّر عن انتظارهم مآلات الصّراع بين المؤمنين والكافرين بالتّربّص دلالة على ترقّبهم ذلك وعلى إثره يحدّدون وجهتهم.

سر التعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ عبّر عن المنافقين بالاسم الموصول؛ للترهيب من تعاطي هذا السلوك من المنافقين، ولتحذير المؤمنين منهم، ولتعيين المُتحدث عنهم.

عـــبّر عـنـهـم بالموصول إظهارًا لقبائح سلوكهم في الصّلة

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ عبّر عنهم بالفعل المضارع؛ لأنّ هذا الفعل يدل على صفات سلوكية تمكنت من المنافقين في عداوتهم للمؤمنين وخبث بواطنهم، وذلك واضحٌ في تعبير القرآن عنهم بالفعل (يتربصون) الذي يشير إلى أنهم في موقف المنتظر للشماتة بالمسلمين والترقب لهزيمتهم دائمًا وأبدًا؛ ففي كل غزوة أو معركة يتربصون بالمسلمين مترقبين هزيمتهم.

عبّر عن سلوكهم بالفعل المضارع دلالة على تجدّد خبثهم وسوء طويتهم

سرُّ العدول عن الفعل (ينتظرون) إلى ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

آثر القرآن الكريم التعبير بالفعل (يتربصون) هنا دون ينتظرون، مع استعمال (ينتظرون) في سياق آخر، يناسب الوعيد الشديد للكافرين، في نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: 102]؛ وذلك لوجود فرق بينهما؛ فالتّربّص فيه طول انتظار، بخلاف الانتظار فزمنه قصير وطويل، ومن ثمَّ يسمَّى المتربّص بالطّعام وغيره متربّصًا؛ لأنّه يطيل الانتظار لزيادة الربح[1].

عـــبّر بـالـفـعـل يتربّصون لما فيه مـن دلالـــة على طـول الانتظار، إظـهـــارًا لـشـدّة انتظارهم

ويضاف إلى ذلك أنَّ التربُّص أشدُّ من الانتظار؛ لأنَّه أثقل لفظًا منه، يؤكِّد هذا أنَّ المواطن التي ورد فيها التربُّص في القرآن الكريم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

يلمح فيها الثِّقل على النَّفس والتَّرقب، كقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، فهذا أمر فيه ثقل على المرأة وطول انتظار، و في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ عبّر بذلك؛ فإنّ عداء المنافقين للمسلمين دفين؛ فمن أجله يتربّصون بالمؤمنين ويتحملون ثقل الانتظار من أجل تحقيق مآربهم في هزيمة المسلمين.

كما نلحظ أنَّ المنتظِر غير مقيَّدٍ بمكان أو بحال؛ لأنَّ اشتقاقه من النَّظر، فالانتظار من الترقُّب والتفحُّص والتأمُّل، فالزمن بالنسبة للمنتظِر لازم عن ترقُّبه مرادَه، وليس كذلك المتربِّص؛ لأنَّ الأصل فيه الجثوم والمُكث في المكان، على حال معيَّن، لا يخلو من التوتُّر والقلق، فهو مُقَيَّدٌ بمكان وزمان وحال.

وعلى هذا فالملاحظ أن التربص يفترق عن الانتظار؛ لأن الانتظار قد يكون أمده قصيرًا أو طويلًا بخلاف التربص فيحمل في الغالب معنى الأمد الطويل أو الثَّقيل، ويكون غالبًا في غير المحبوب.

دلالة حرف الجر (الباء) في قوله ﴿بِكُمْ﴾:

الباء للإلصاق للدّلالة على شدّة تربُّص المنافقين بالمسلمين

دل حرف الباء على أنَّ المنافقين ملاصقون للمسلمين، ويعيشون معهم ولا يستطيع المسلمون فصلهم عن المجتمع؛ لأنهم متداخلون فيه.

كما يشير إلى حرص المنافقين على إظهار الصفات التي بها يَنْضَوُونَ إلى المجتمع الإسلاميّ؛ حتى لا ينكشف أمرُهم، أو يَفْتَضِحَ حالُهم، فهم يقْبَعُون في أماكن المسلمين، ويجْثُمون مترقِّبينَ مآلات الأمور.

دلالة (كاف) الخطاب في قوله ﴿بِكُمْ﴾ بدلًا من التعبير بالمؤمنين:

دلّ كاف الخطاب على أنّ المراد بالمخاطبين المؤمنون في زمن النّبيِّ ﷺ، وهذا ما تؤكّده الأحداث التي وقعت للمسلمين في زمنه ﷺ في غزوة أحد و غيرها، إذْ لمّا تغلّب المشركون على المسلمين؛ فرح

دلّ كاف الخطاب على إرادة المسلمين زمان البعثة، وإشارة إلى علوّ رتبتهم عند الله تعالى

المنافقون وشمتوا بالمسلمين، وهذا لا يمنع أن يكون هذا السلوك مع المؤمنين على العموم. وفيه إشارة إلى علو قدر المؤمنين عند ربهم فهم محل خطابه.

كما يشير ضمير الخطاب هنا إلى دقَّة معرفة المنافقين بالمؤمنين الخُلَّص، بحيث لا يلتبس عليهم واحد منهم؛ وذلك مستفاد من أنَّ الضَّمائر أعرف المعارف، لأنَّها لا تفتقر إلى أن توصف كغيرها من المعارف، وهو قول سيبويه[1].

وفي وضع المنافقين موضعَ اسم الموصول المفتقر إلى صلته مواءمة لحالهم من التستُّر والخفاء والضعف، كما أنَّ التعبير عن المؤمنين بضمير المخاطبين إشعار بظهورهم و قوّتِهم.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾:

تفصيل بعد إجمال، وإفصاح عن غرضهم من التّربّص

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ "لترتيب مضمونِه على ما قبلها؛ فإنّ حكايةَ تربُّصِهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك، كما أنّ نفس التّربُّص يستدعي شيئًا ينتظر المتربّصُ وقوعَه"[2]. و"هذه الجملة والتي بعدها حكاية لتربّصهم"[3]. ويضاف إلى ذلك أنَّ هذه الفاء تفصيليَّة[4]؛ لسبقها بمُجمل.

السّرّ في التّعبير بـ (إن) الشّرطيّة دون (إذا):

صرّح بـ (إن) للدّلالة على أنّ المنافقين يستبعدون ظفر المسلمين، إظهارًا لخبث طويّتهم

اختار التعبير القرآني (إن) بدلًا من (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لوجود فرق بينهما؛ فـ (إذا) تفيد تحقّق الوقوع، ولا تدخل إلا على الشّيء المتيقّن، ووقوعه كثير بخلاف (إن) فَهِيَ تفيد الشّك في الوقوع، وتشير إلى أنّه قليل، وهذا المعنى واضحٌ في سلوك المنافقين؛ فكأنهم يشكّون في وقوع النّصر للمسلمين

(1) ابن الأنباري، أسرار العربيّة، ص: 244.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/271.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/435.

ويستبعدونه؛ لأنّهم يرون أنّ المسلمين في وضع الضّعف والهزيمة، وفي هذا دليل على كراهِيَةِ أهل النّفاق للإسلام وأهله.

تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

قدم الخبر ﴿لَكُمْ﴾، وأصل الكلام: (فإن كان فتحٌ من الله لكم)؛ للدّلالة على اختصاص الفتح بالمسلمين لتفصيل الشّرط، وَ تبيينِ موقفهم منه، ويشير إلى سلوك نفسيٍّ لدى المنافقين؛ فهم يخادعون المؤمنين ويتربّصون بهم، ومع ذلك يريدون أن يكون لهم موقف إذا انتصر المسلمون، وظهر ذلك في تقديم الخبر ﴿لَكُمْ﴾ في الذّكر.

قدّم المسند للدّلالة على سلوك المنافقين في حالة اختصاص الفتح بالمسلمين

سرّ التّعبير عن النّصر بالفتح في جانب المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبّر عن النّصر في جانب المؤمنين بأنّه فتحٌ؛ "لأنّ الفتح فصل بين الحقّ والباطل، ولأنّه من وراء نصر المؤمنين فتح الطّريق لكي يدرك النّاس الإسلام، ويدخل فيه من أراد، ولأنّ النّصر للمؤمنين دائم، وقد عبّر سبحانه عن الفتح أنّه يجيء من الله وفي ذلك معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو الله القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بقيت الأسباب التي تُتّخذ للنّصر"[1]، ويضاف إلى ذلك أنّه عبّر بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم.

تعظيمًا لأمر الإيمان وأهله، فهو فصل بين الحق والباطل

فعبّر البيانُ القرآنيُّ بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم، وفيه إشارة إلى أنّ هذا النّصر هو فتح لأبواب الخير وطرق الهداية، وعبر عمّا يحدث للكافرين بالنّصيب؛ فلم يقل إنّ انتصارهم فتحٌ، ولكنّه قدرٌ من النّصر قلّ أو كثر، ولا يمكن أن يكون فتحًا؛ لأنّه لا ينصر الباطل نصرًا دائمًا؛ تنبيهًا على أنّ الذي حصل للكافرين من نصرٍ في معركة من المعارك هو من الدَّوْلَةِ في طبيعة الحرب؛ لأنّها سِجال.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

دلالة التنكير في قوله: ﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

نكّر الفتح؛ لأنّ سلوك المنافقين كان يتكرّر مع كلّ فتح، فالتّنكير للتّكثير

دل التنكير على أن المنافقين يستغلون الفرص، ويريدون النّفع لأنفسهم، ولو كان الأمر صغيرًا، وليس كبيرًا، وفيه دلالة على أنّ سلوكهم لم يكن ليتوقّف عن فتح واحد بعينه، بل كانوا يفعلون ذلك مع كلّ غزوة، ويصدّق ذلك الفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ فهو تربّص مستمرّ متجدّد مع كل موقعة ينتج عنها فتح للمؤمنين أو نصيب للكافرين.

ولا مانع من إفادة التّنكير - هنا - التعظيمَ مع التّكثير، باعتبارين مختلفين؛ فعلى اعتبار أنّ فتح أيِّ بلد للإسلام يعدُّ فتحًا عظيمًا، كما أنَّ وصفه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يكفي في اكتسابه العظمة، وباعتبار أنَّ الفتوحات كثيرة يفيد التكثير، وليس تنكير ﴿نَصِيبٌ﴾ كتنكير ﴿فَتْحٌ﴾؛ لاحتمال دلالة (نصيب) على القلة، أو التحقير.

دلالة التعبير بالفتح دون النصر:

الفتح أعمُّ من النّصر، لتعلّقه بالمادّيات والمعنويّات

عبّر بالفتح دون النّصر؛ لأنّ معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

سرّ وصف الفتح بكونه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

وصف الفتح بكونه من الله تعالى تعظيمًا له، وإشارة إلى دوامه

دلّ هذا التّعبير على عظمة هذا الفتح، وأنّه يحمل معانيَ عديدة؛ لأنّه من الله؛ فهو "مُقَدِّرُهُ وَمُرِيدُهُ بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَيِّنَةٍ"[2]. "وفيه تذكير للمؤمنين بأنّ ما كان لهم من نصر فهو من عند الله،

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/237.

بتأييده لهم، وإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين"[1]. وفيه إشارة إلى معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو اللّه القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بَقِيَتِ الأسباب التي تتّخذ للنّصر[2].

حكاية القرآن لقولهم التّقريري: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

إعـــلان لقبيح طـويّـتـهـم، فطبيعة النّفاق، القول بلا عمل

هذا القول يشير إلى فضح وجه المنافقين الكالح؛ لأنّهم كانوا مع المؤمنين في المعركة بأجسادهم يمشون بها في تثاقل وانحراف، والحرب دائرة، والقتال مستعر؛ فلا عمل يصدر منهم، بل يقفون عند حيِّز القول الأجوف[3].

سرُّ العدول عن الإخبار إلى الإنشاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ بدلًا من قولهم: (كنا معكم):

عـــــبّروا عـن غـــرضـــهـــم بأسلوب التّقرير لتأكيده وزيادة الإيهام

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ "معناه أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفي إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾"[4]، فجاء التّعبير بهذا التركيب الإنشائيِّ؛ ليشير إلى أنّهم يحاولون تَأْكِيدَ وجودهم الجسديِّ؛ فكأنّهم أدركوا أنّ المؤمنين أنكروا وجودهم لعدم تقديمهم ما يدلّ على الأثر الفاعل؛ فحاولوا إزالة هذا الشّعور بهذا الأسلوب المؤكِّد على كينونة وجودهم.

دلالة التعبير بالمصاحبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

اختار القرآن الكريم التّعبير بالمصاحبة التي يدلّ عليها (مع) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ للإشارة إلى سلوك المنافقين في مثل

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 3/940.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

هذه المواقف؛ فهم يريدون الاستفادة في مواطن النّصر من الغنائم؛ لأنّ الغنيمة لا تكون إلّا لمن حضر؛ فأرادوا إثبات حضورهم ليتحقق شرط الأخذ من الغنيمة. وفيه إشارة إلى سماحة الإسلام أنّه يعامل المنافق بظاهره فيعامل معاملة المسلم؛ فيأخذ حظّه من الغنيمة.

دلّت المصاحبة على أنّ الحضور في المعركة شرط لأخذ الغنيمة

بلاغة العطف:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها وما قبلها تفصيل لتربّص المنافقين المذكور.

عطف الجملة على ما قبلها لأنّها تفصيل للتَّربُّص

دلالة التعبير بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

دلّ التّعبير بـ (إن) على موقف المنافقين إذا دارت معركة بين المسلمين والكافرين؛ فإنّهم يحاولون أن يقفوا موقفًا يخدم مصالحهم، ولا يحسمون النّتائج لصالح الكافرين؛ لأنّهم يعلمون قوّة المسلمين وتأييد الله تعالى لهم؛ فلا يريدون الظّهور بالعداء للمسلمين مع وجودهم فيهم، بل يقفون موقفًا انتهازيًّا.

عبّر بأداة الشّرط (إن) الدّالّة على الشّك لما علموا من قوّة المسلمين

سرّ تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

قدّم خبر كان على اسمها، فلم يقل: (وإن كان نصيب للكافرين)؛ لمزيد الاهتمام من المنافقين بالكافرين؛ وكأنّهم يريدون أن يعلنوا من طرف خفيٍّ أنّهم مع الكافرين ويوالونهم.

قدّم خبر كان (للكافرين) لبيان زيادة المنافقين بهم

الغرض من الاستفهام:

عبّر بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ لتقرير معيّتهم، أي" أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾"[1].

عبّر بالاستفهام التّقريريّ لتأكيد معيّتهم للمؤمنين، وزيادة الإيهام

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/237.

علة تسمية ظفر المسلمين فتحًا وظفر الكافرين نصيبًا:

تعظيمًا لأمر الإيمان وأهله، وذمًّا لشأن الكفر وأهله

سمّى ظفرَ المسلمين فتحًا، وظفر الكافرين نصيبًا "تعظيمًا لشأن المسلمين، وتخسيسًا لحظِّ الكافرين؛ لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السّماء حتّى ينزل على أوليائه. وأمّا ظفر الكافرين، فما هو إلا حظٌّ دنيّ، ولمظة من الدّنيا يصيبونها"[1]؛ "فإنّه مقصور على أمر دُنيويّ سريعِ الزّوال"[2].

سر التعبير بنصيب دون الحظ:

عبّر عن ظفرهم بالنّصيب دون الحظّ، لأنّ النّصيب يقع في الخير والشّرّ

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والنّاظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير وجانب الشّرّ، قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنّصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيِّ بين النّصيب والحظّ؛ فيرد النصيب في الشرِّ، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾:

أكّدوا امتنانهم على الكافرين بأسلوب التّقرير

عبّروا بأسلوب الاستفهام التّقريريّ إظهارًا لمنّتهم على الكافرين، وتأكيدًا لما كانوا يُبْدونَهُ في سلوكهم مع الفريقين، "ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنّة على الكافرين، أي: فاعرفوا لنا الحقَّ في هذا عليكم"[3].

دلالة الإخبار بالمعيّة مع المؤمنين دون الكافرين:

النّاظر في هذه الآية: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ يجد مغايرة في قول المنافقين مع

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/578 - 579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406 - 407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.
(3) الواحدي، البسيط: 7/158، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

المؤمنين، حيث قالوا ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وقالوا مع الكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾، فاختلف التّعبير القرآني الصّادر عن المنافقين مع الكافرين؛ لاختلاف المواقف؛ فهم مع المؤمنين لهم وجود ومعايشة، ومساكنة، بل ويصلّون معهم إذا لزم الأمر؛ فالمعيّة ظاهرة، لذلك وظّفوها في طلب منفعتهم، بخلاف الأمر مع الكافرين فهو مختلف؛ لأنّهم لا يستطيعون إعلان المعيّة الظّاهرة، وإن كانوا مؤيّدين لهم في الباطن حتّى لا ينكشف أمرهم ويَفْتَضِحَ وجوههم.

عــبّروا بالمعيّة لأنّ حياتهم مع المؤمنين فيها مُساكَنةٌ

سر التّعبير بالاستحواذِ دون غيره:

عبّر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ بفعل الاستحواذ، إشارة إلى معنى الاستيلاء والتّمكن من فعل الشيء؛ فالمنافقون يمنّون على الكافرين، وأنّ ما نالوه من نصيب هو بسبب ما فعلوه معهم. وفيه إشارة إلى قيادة المنافقين للكافرين أخذًا من المعنى اللُّغويّ الذي يدلّ على السَّوق العنيف لِحادي الإبل؛ فالكافرون في نظرهم بمنزلة الإبل التي تساق بعنف، وممّا يدلّ على ذلك وجود الجار والمجرور (عليكم) فهو يحمل معنى الاستعلاء، ويؤكّد هذا ما ذكره الشيخ أبو زهرة: "أن كلمة استحوذ معناها: أحطنا بحاذيكم أي جانبيكم، وهذا كناية عن الإحاطة بهم للحماية والمنع"[1].

عبّر بالاستحواذ للدّلالة على الاستيلاء والتّمكّن من الفعل

كيفية الاستحواذ:

تعدّدت آراء العلماء في كيفية استحواذ المنافقين، وخلاصتها ما ذكره الرَّازي بأنّ معناه: أَلَمْ نَغْلِبْكُمْ وَنَتَمَكَّنْ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرِكُمْ، ثُمَّ لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ ثَبَّطْنَاهُمْ عَنْكُمْ، وَخَيَّلْنَا لَهُمْ مَا ضَعُفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَانَيْنَا فِي مُظَاهَرَتِهِمْ عَلَيْكُمْ، فَهَاتُوا لَنَا نَصِيبًا مِمَّا أَصَبْتُمْ[2].

تظاهر المنافقين لكل طائفة بأنهم معهم دون الأخرى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

صـدّ المنافقين للكفار عن الإسلام

يظهر هذا الصّدّ في تفسير استحواذ المنافقين في تنفير الكفّار واليهود من الإسلام، وهذا المعنى ذكره الإمام الرازي فقال: "الْمَعْنَى أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ وَالْيَهُودَ كَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ حَذَّرُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَبَالَغُوا فِي تَنْفِيرِهِمْ عَنْهُ وَأَطْمَعُوهُمْ أَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَسَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ لَهُمْ صَوْلَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: أَلَسْنَا غَلَبْنَاكُمْ عَلَى رَأْيِكُمْ فِي الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمَنَعْنَاكُمْ مِنْهُ وَقُلْنَا لَكُمْ بِأَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُهُ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَلَمَّا شَاهَدْتُمْ صِدْقَ قَوْلِنَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَمُنُّونَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِأَنَّا نَحْنُ الَّذِينَ أَرْشَدْنَاكُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَصَالِحِ، فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ"[1].

إيثار التعبير بالمؤمنين دون المسلمين:

آثـر التّعبير بعنوان الإيمان دون الإسلام إخراجًا للمتظاهرين بالإسلام

في قوله تعالى: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آثر القرآن الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون المسلمين؛ لإخراج المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، كما فعل هؤلاء من خلال سياق هذه الآية، حيث قالوا للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

بلاغة العطف المنع على الاستحواذ:

وصـل بين الجملتين لكمال الاتّصال؛ لأنّهما من قائل واحد

عطف قوله تعالى: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قوله: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ لشدّة الاتّصال بينهم؛ لأنّهما مقول المنافقين، ولأنّ المنع جزءٌ من الاستحواذ؛ فهو من باب عطف الخاصّ على العام.

سرّ التعبير بالمنع دون الكف:

عبّر بالمنع دون الكفّ؛ لأنّ المنع يقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وفلانٌ ذو منعة، أَيْ: عزيز ممتنع على من يرومه، بخلاف الكفّ فهو بالدّفع على أَيِّ وجهٍ كان، بالكفّ كان أو بغيره، ولذلك

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

فالكفّ أعمّ من المنع؛ لأنّ المنع الأصل فيه الحماية، وقد لا تصل إلى المواجهة، بخلاف الكفّ؛ فقد يصل إلى المواجهة بالقتال، وعلى ذلك فالكفّ أقوى من المنع، ولذلك نجد أن المنافقين استخدموا التعبير بالمنع؛ لأنّه يراد به هنا "إِمَّا مَنْعٌ مَكْذُوبٌ يُخَيِّلُونَهُ الْكُفَّارَ وَاقِعًا وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَإِمَّا مَنْعٌ تَقْدِيرِيٌّ وَهُوَ كَفُّ النُّصْرَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّجَسُّسُ عَلَيْهِمْ بِإِبْلَاغِ أَخْبَارِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَإِلْقَاءُ الْأَرَاجِيفِ وَالْفِتَنِ بَيْنَ جُيُوشِ الْمُؤْمِنِينَ، وكلّ ذَلِك ممّا يُضْعِفُ بَأْسَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ وَقَعَ، وَهَذَا الْقَوْلُ كَانَ يَقُولُهُ مَنْ يَنْدَسُّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَزَوَاتِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ جُيُوشُ الْمُشْرِكِينَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ مِثْلَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ"[1].

الأصل في المنع الحماية ولو في الظاهر، والكف يحتمل المواجهة

سر التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾:

عبّر بالمضارع للإشارة إلى زعم المنافقين بأنّهم يمتلكون القوّة في منع المؤمنين عنهم في الحال والمستقبل.

عبّر بالمضارع للدّلالة على التّجدّد والاستمرار، تنزيلًا على زعم المنافقين

سر الجمع بين الاستحواذ والمنع:

جمع القرآن الكريم بينهما؛ للدّلالة على شدة ميل المنافقين إلى الكفار، فلم يكتفوا بواحدة منهما، بل أرادوا تأكيدَ شدة ميلهم إلى الكافرين، كأنَّهم يقولون لهم نحن الذين صنعنا لكم هذا النّصر، وذلك بأن أرخينا لكم العنان، وثبّطنا المؤمنين عنكم، وهذا يؤكد شدة ميلهم إلى الكفار، حيث اكتفوا مع المؤمنين بالمعيَّة فقط ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾.

صلة المنافقين بالكفار وثيقة

التّعبير عن الحكم بالفعل المضارع:

عبّر عن حكمه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾بالفعل المضارع الدّالّ على الحدوث والتّجدّد اعتباريًّا "أي باعتبار ظهور الحكم وبروز متعلّقه، وإلّا فالحكم قديم أزليٌّ"[2].

الحكم تقدير قديم، وظهوره حادث عند تعلّقه بالنّاس

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/237.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/63.

الغرض من الإخبار بالحكم بينهم يوم القيامة:

تسلية المؤمنين وتأنيسهم، وإنذار المنافقين وتحذيرهم

قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ جاءت هذه الجملة تسلية للمؤمنين وتحذيرًا للمنافقين؛ ذلك أن الله يحكم بينكم جميعًا "حكمًا يليق بشأن كل منكم من الثّواب والعقاب؛ فلا يغترّ المنافقون بحقن دمائهم في الدّنيا لتلفّظهم بالشّهادة؛ لِما له تعالى في ذلك من الحكمة؛ فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم"[1]، وإنما أجَّل الله الحكم ليوم القيامة؛ لإنصاف المؤمنين من المنافقين "ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضّمائر، وإنْ حقنوا في الدّنيا دماءهم وحفِظوا أموالَهم بالتّكلم بكلمة الإسلام نفاقًا"[2]؛ والله سبحانه وليّ المؤمنين "سيقطع ما بين الفريقين، وسيكون المؤمنون في النّعيم، وأولياء الشّيطان في الجحيم"[3].

سر الاكتفاء بقوله ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ دون (وبينهم):

اكتفى بذكر ضمير المؤمنين إشارة انتفاء أهليتهم بالذّكر

الأصل في التحكيم أن يكون بين طرفين، والمراد هنا بين المؤمنين والمنافقين، لكن التعبير القرآني لم يشر إلى المنافقين على رأي من يقول إنّ الضّمير في قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ يعود إلى المؤمنين، والسبب في عدم ذكر المنافقين والكافرين، الإشعار بأنهم ليسوا أهلًا للذكر، ولا وزن لهم؛ كما قال ربنا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105]، وإنما الشأن في هذا اليوم للمؤمنين وحدهم؛ فهم أصحاب هذا اليوم يجنون ما به من ثمرات[4].

سرّ التّعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

عبّر عن حكمه تعالى بالجملة الاسميّة للدّلالة على ثبوت حكمه، تأكيدًا لطمأنة المؤمنين

جاءت الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبوت الحكم لله ﷻ؛ فلا حكم إلا له، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: 57]، وفيه إشارة إلى زجر المنافقين والكافرين، وطمأنة المؤمنين بأنه لا معقّب لحكمه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 3/376.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 3/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/904.

إيثار تعليق الحكم بيوم القيامة:

علّق إجراء الحكم بيوم القيامة لأنّ الدّنيا دار بلاء لا دار جزاء

آثر التّعبير بالحكم، والمراد لازمُه؛ فيثيب أحبّاءه، ويعاقب أعداءه، وأمّا في الدنيا فأنتم وهم سواء في العصمة، "﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ حكمًا يليق بشأن كلٍّ منكم من الثّواب والعقاب، وأمّا في الدّنيا فقد أُجْرِيَ على من تفوَّه بكلمة الإسلام حُكمُه، ولم يضع السّيفَ على من تكلّم بها نفاقًا"[1].

سرُّ التعبير بيوم القيامة دون غيره من الأوصاف:

عبّر عن يوم البعث بالقيامة لأنّه الاسم العلم لذلك اليوم

أسماء يوم القيامة في القرآن كثيرة؛ كالحاقّة والقارعة والصّاخة والطّامّة وغير ذلك، وهي ليست مترادفة؛ لأنّ اسم يوم القيامة هو الاسم الأصل لهذا اليوم، وما عداه أوصاف له؛ يؤكّد ذلك أنّه ورد فيما يقرب من سبعين آية، بخلاف الأوصاف الأخرى فلم ترد إلا قليلًا؛ إذ كلّ واحد منهما يصف اليوم من جانب خاصّ، بخلاف اسم يوم القيامة فهو الاسم العلم، والباقي له صفات. وفيه إشارة إلى أنه البداية لما بعده، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: 6] للحساب وللجزاء.

بلاغة عطف الوعد على الحكم:

وعد الله للمؤمنين بأن تكون يدهم هي العليا ويد الكافرين هي السّفلى

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها لشدّة الاتّصال بينهما؛ فَهِيَ بمثابة بيان نتيجة الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، فحكم بأنَّه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

دلالة مجيء الوعد في فاصلة الآية:

ختم الآية بقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بهذا الوعد؛ لتثبيت المؤمنين، ودحضِ أوهام المنافقين

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

والكافرين؛ لأنَّ المؤمنين يعيشون بين "عَدُوٍّ مُجَاهِرٍ بِكُفْرِهِ. وَعَدُوٍّ مُصَانِعٍ مُظْهِرٍ لِلْأُخُوَّةِ، سالكًا مسلك النّفاق فأظهر أقصى درجات المكر والحيلة، وهذا يُثِيرُ مَخَاوِفَ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ يُخَيِّلُ لَهُمْ مَهَاوِيَ الْخَيْبَةِ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ. فَكَانَ مِنْ شَأْنِ التَّلَطُّفِ بِهِمْ أَنْ يُعْقِبَ ذَلِكَ التَّحْذِيرَ بِالشَّدِّ عَلَى الْعَضُدِ، وَالْوَعْدِ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، فَوَعَدَهُمُ اللّه بِأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ، وَإِنْ تَأَلَّبَتْ عِصَابَاتُهُمْ. وَاخْتَلَفَتْ مَنَاحِي كُفْرِهِمْ، سَبِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[1].

ختم الآية بوعد المؤمنين بنفي ظهور الكافرين عليهم تثبيتًا لهم وتلطّفًا بهم

إيثار النّفي بـ (لن):

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ آثر القرآن الكريم النّفي بـ (لن) لما تحمله من ردّ على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين، وفيه تثبيت للمؤمنين، ووعد كريم بأنّ الله تعالى لن يسلّط الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكليّة. وإن حصل لهم ظفر حينًا ما، وهذا التّأويل روعي فيه سابق الآية ولا حقها.

آثر النّفي بـ (لن) الدّالّ على المستقبل قطعًا لآمال المنافقين، وتثبيتًا للمؤمنين

توجيه نفي ظهور الكافرين على المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هذا خبر بوعد الله الكريم، والخبر من الله ﷻ حاصلٌ لا محالة، والواقع أنّنا نرى أن الكافرين يتسلّطون على المؤمنين في بلادهم وأبدانهم، أجاب ابن العربيّ على ذلك بأنّ المراد لَنْ يَجْعَلَ اللّه لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا يَمْحُو بِهِ دَوْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبُ آثَارَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ[2].

المنفيّ هو غلبتهم باستئصال شأفتهم واستباحة بيضتهم

ذهب بعض العلماء إلى أنّ المنفيّ الحجّة في الآخرة؛ لأنّه عطف على قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[3]، "قال يسيع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/238.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/510.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الحضرمي: كنت عند عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانًا؟ فقال عليّ (رضي الله عنه): معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال أهل التّأويل"[1]. وذهب بعضهم إلى أَنَّ ذلك في الدُّنْيَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ غَالِبَةٌ عَلَى حُجَّةِ الْكُلِّ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَغْلِبَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ[2]، ولعل هذا هو الأوفق.

المنفيّ هو ظهورهم عليهم بالحجّة والغلبة في الاحتجاج

سر التعبير بالجعل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عبّر بالجعل دون غيره لإفادة معنى المنّة على المؤمنين؛ لأنّ (جعل) بمعنى (صيّر وحوّل)؛ فالأصل أن تكون الغلبة والنّصر للمؤمنين، لكن قد يتعرّض المسلمون للغلبة من الكافرين في موقعة ما؛ فهذا أمر طارئ بسبب المعاصي، وعدم الأخذ بالأسباب، ولن يحوّل الله تعالى وعده للمؤمنين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: 47].

عبّر بالجعل دون غيره للدّلالة على محض الامتنان

دلالة إسناد الجعل إلى الله تعالى في هذه الآية:

أسند الجعل إلى الله تعالى؛ لإفادة طمأنة المؤمنين، وتثبيتهم في معاركهم مع الكافرين؛ لأن اسم الجلالة يجمع صفات الجمال والجلال ومن معانيها، قهر الكافرين، مع ما فيه من المهابة والتّعظيم.

أسند الجعل المنفيّ لله تعالى للمهابة والتّعظيم، طمأنة للمؤمنين

السّرّ في نفي غلبة الكافرين دون إثبات غلبة المؤمنين:

نفى سبيل الكافرين على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ دون إثبات السّبيل للمؤمنين، بأن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/324، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/126.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/248، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

يقول: (ويجعل الله السّبيل للمؤمنين على الكافرين)؛ لأنّه هو الأصل، أمّا وجود سبيل للكافرين على المؤمنين فهو طارئ موقوت وعارض إلى زوال، وفيه إشارةٌ إلى قوّة الكافرين، وأنّهم يملكون من القدرة على النّصر والتّمكّن من المؤمنين، وهذا ما حدث في غزوة أحد وغيرها من الغزوات، وهذا لا يعني وجود سبيل للكافرين على المؤمنين.

لم يصرّح بغلبة المؤمنين؛ لأنّه الأصل وانتصار الكافرين طارئ

سر المقابلة بين الكافرين والمؤمنين في فاصلة الآية:

قابل بين الوصفين في قوله تعالى: ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إشارة أنّ سبب انتفاء الجعل هو هذا الوصف، فإنّ الله تعالى لن يجعل للكافرين بوصف الكفر سبيلًا للظّهور على المؤمنين بوصف الإيمان. إذًا الوصف بالكفر مقابل وصف الإيمان هو السّبب في نفي ولاية الكفّار على المؤمنين الذين تحقّقت فيهم صفة الإيمان، الذي يترتّب عليه نصر الله للمؤمنين.

التّصريح بالصّفتين، إظهارًا لسبب امتناع ظهورهم على المؤمنين

إيثار التّعبير بلفظ السبيل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ اختار ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره؛ لأنه عام يطلق على كل ما يتوصل به، ومنه القهر والحجة، "وَالْمُرَادُ بِالسَّبِيلِ طَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَزِيمَةِ وَالْغَلَبَةِ"[1].

آثر التّعبير بلفظ السّبيل لأنّه عامّ يطلق على ما يتوصّل به إلى الحجّة والظّفر وغيره

فائدة التّنكير في لفظ السّبيل:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ جاء لفظ السّبيل نكرة للتّعميم، فيشمل كلّ سبيل يؤدّي إلى الظّهور معنويًّا أو ماديًّا.

جاء لفظ السّبيل نكرة؛ ليشمل كلّ أنواع السّبل المؤدّية إلى الظّهور معنويًّا أو ماديًّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/238.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتح والنّصر:

الفتح أعمُّ من النّصر، لتعلّقه بالمادّيّات والمعنويّات، وهو أنسب لمقام الآية حيث طمع المنافقون في الغنائم وهي تقع في الفتح

عبر بالفتح دون النصر؛ لأن معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

"النّصر: الإغاثةُ والإظهارُ على العدوّ. ومنه: نصر الله الأرض غاثها. والفتح: فتح البلاد"[2]، والذي يناسب الآية (الفتح) لأنّه يتحقّق بفتح البلاد كثير من الغنائم والفَيْءِ، وهذا أدعى إلى طمع المنافقين في التَّربُّصِ والمطالبةِ بسهم من تلكم الغنائم.

الحظّ والنّصيب:

النّصيب يكون في الشرّ والخير، والحظّ في الخير، وذكر النّصيب في الآية؛ لأنّه جاء مع الكافرين

النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، يقال: وفّاه الله نصيبه من النّعيم أو العذاب، ولا يقال حظّه من العذاب؛ لأنّ أصل الحظّ هو ما يحظّه الله تعالى للعبد من الخير، والنّصيب: ما نصب له لينالَه سواءٌ كان محبوبًا أو مكروهًا[3].

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والناظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير، كقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/810.
(3) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 186.

وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ [النساء: 85]، و يأتي في الشر كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيّ بين النصيب والحظ؛ فيرد النصيب في الشر، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

الانتظار والتّربّص:

التّربّص انتظار يطول، فناسب الآيـــة لـطـول انتظار المنافقين

"التَّرَبُّص: طولُ الِانْتِظَار، يكون قصير المدَّة وطويلها وَمن ثمَّ يُسمّى المتربّص بِالطَّعَام وَغَيره متربّصًا؛ لِأَنَّهُ يُطِيل الِانْتِظَار لزِيَادَة الرِّبْح، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: 25] وَأَصله من الرّبصة وَهِي التلبّث يُقَال مَا لي على هَذَا الْأَمر ربصة أَي تلبّث فِي الِانْتِظَار حَتَّى طَال"[1]. وفي الآية الكريمة دلّت على أنّ انتظار المنافقين يطول؛ فأنْ يحيق بالمؤمنين دائرة من دوائر السّوء يلزمه الانتظار حتّى يطول؛ لأنّ القتال لا يقع إلّا قليلًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»